

ألف حكاية وحكاية (١٢٠)

ضحكة فرعونية

وحكايات أخرى

بقلم

يعقوب الشاروني



رسوم

نسيم

الناشر

مكتبة مصر

توزيع وزارة الثقافة
مشاريع كمال حداد، القاهرة
٢٠٠٥/٨/٩

ما بعد الأيام

في خاتمة كتاب "ما بعد الأيام" ، الذي كتبه الدكتور "محمد حسن الزيات" وزير خارجية مصر الأسبق ، عن والد زوجته الدكتور طه حسين ، عميد الأدب العربي ، يقول :

رأيت رجلاً من بين جماهير الشعب الذين وقفوا يُشيعون العميد ، بعد رحيله في الثامن والعشرين من أكتوبر عام ١٩٧٣ ، وقف يبكي مع ابنه ويقول له :

"أنت يا بُنى تبكي طه حين لأنك تعلمت منه ، وقرأت له ، وسمعت أحاديثه في الإذاعة .

وأنا يا بُنى لم أتعلم من طه حين ، ولم أقرأ كتبه ، ولم أسمعهُ يتحدث في الإذاعة إلا نادراً ومصادفةً .

ولكني أبكيه يا بُنى ، لأنه هو الذي مكَّنني ، منذ ثلاثة وعشرين عاماً ، من تعليمك . وها أنت قد حققت لنفسي ولأسرتك من الثقافة والكرامة والخير ما حققت .

أبكيه يا بُنى ، لأن الله تعالى أكرمهُ بالعلم ، فلم ينس الجاهلين . وأغناه ، فلم ينس المحتاجين . وأسعده ، فلم ينس من في الأرض من المعدِّبين ."



الدكتورة سهير القلماوى و " الشرشرة "

فى الكتاب التذكارى الذى أصدرته لجنة ثقافة الطفل
بالمجلس الأعلى للثقافة ، حول أستاذتنا الدكتورة سهير القلماوى ،
يقول الأستاذ الدكتور أحمد مرسى ، أستاذ الأدب الشعبى بكلية
الآداب جامعة القاهرة :

يُمكن أن أحكى الكثير عما تعلمته من أستاذتى وأمى سهير



القلمماوى ، لكننى ساكتفى بحكاية واحدة ، تمثل شخصيتها
وخصالها .

فى بداية حياتى الجامعية ، عندما عُيِّنْتُ مُعيداً فى قسم اللغة
العربية ، و كانت أساتذتى الجليلة رئيساً للقسم ، طلبت منى ذات يوم
أن اكتب شيئاً فى أمر يخص القسم ، لكى تحمله معها إلى مجلس
الكلية ، وأن أفعل ذلك بسرعة .

كان معى " كشكول " من النوع الذى يجمع السلك أوراقه ،
فانتزعت ورقة منه ، و كتبت ما أردته ، و ذهبت لأقدمه لها . و كانت
المفاجأة أنها لم تقرأ ما كتبت ، و إنما أخذت الورقة ، و نظرت إلى
و هى تكورها بيدها ، و قالت بالحرف الواحد :

" يا بنى ، ما فىش واحد محترم يكتب على ورق مشرشر ..
هتكتب على ورق مشرشر ، ها تبقى هدومك مشرشرة ، و شغللك
مشرشر ، و ها تبقى إنت نفسك بنى آدم مشرشر ، و أنا ما احبش حد
من ولادى يبقى مشرشر . روح شوف ورقة عدلة ، و اكتب اللى طلبته
منك . "

و لم تكن سهر القلمماوى طوال حياتها " إنسان مشرشر " ، و لم
تسمح لأى من أبنائها و تلاميذها أن يكونوا " مشرشرين " !!

خافوا من تنويرك للعقول!!

في رواية الأديب "حسن محسب" عن "رفاعة الطهطاوي"،
والتي يقدم فيها ملحمة رائعة عن الحب لمصر والتضحية للوطن،



يحكى الكاتب الروائي الموهوب هذه الحكاية ، يقول :

"عندما توفى محمد علي في الثاني من أغسطس سنة ١٨٤٩ .

جاء بعده الخديو عباس .

أمر الخديو عباس : "تم تصفية المدارس ، وتحرق أو تغلق

مدرسة الألسن!!"

وثار الطهطاوى ، وهرب إلى القلعة ، وقال لعباس : "هذا قرار

يُعيد البلاد إلى عصر الجُمود والتخلف والظلام."

فغضب منه عباس ، وأمر بنفيه إلى السودان وهو يقول له

ساخراً : "شيخ رفاعة تريدُ تعليم .. اذهب إلى طوكر بالسودان ،

عِثْتُكَ ناظر مدرسة ابتدائية هناك .. علم الناس خرافات وهلوسات

عن حرية .. وثقافات .. وحضارات .. ولن تعود من هناك ما دُمْتُ أنا

أحكم .."

وكان لرفاعة زميل بالأزهر ، قال له : "هذه وشاية من الأمراء

والأعيان ، لأنهم خافوا من تنويرك لعقول الناس ، وتعليم عامة

المصريين .. وعضبوا من إغاثك اللغة التركية ، ودعوتك إلى الدستور

الحرية ، وهم يريدون أمة من العبيد.." وسافر الطهطاوى إلى

السودان ، لكن مع تولي سعيد عرش مصر سنة ١٨٥٤ ، عاد إلى مصر ،

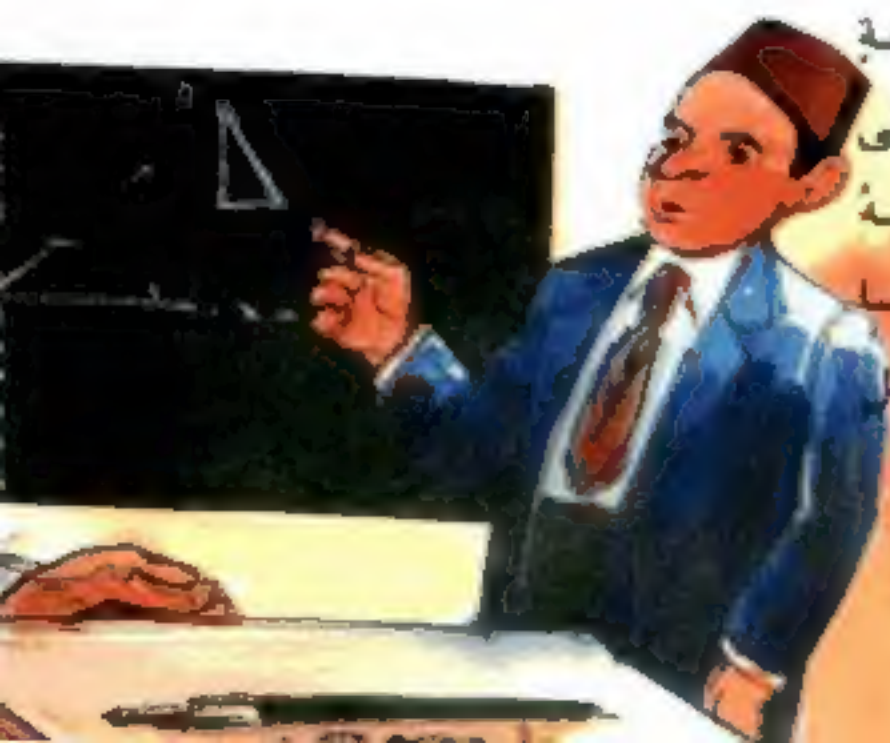
ليكمل مسيرة التعليم والتنوير.

على باشا مبارك .. أبو التعليم

عندما كان أستاذ الجيل " أحمد لطفي السيد " تلميذاً في مدرسة الخديوية سنة ١٨٨٩ ، وهي السنة التي حصل فيها على شهادة " البكالوريا " ، التي تُشبه الثانوية العامة العالية ، كانت المدرسة تعقد اختباراً كل شهر لتلاميذها .

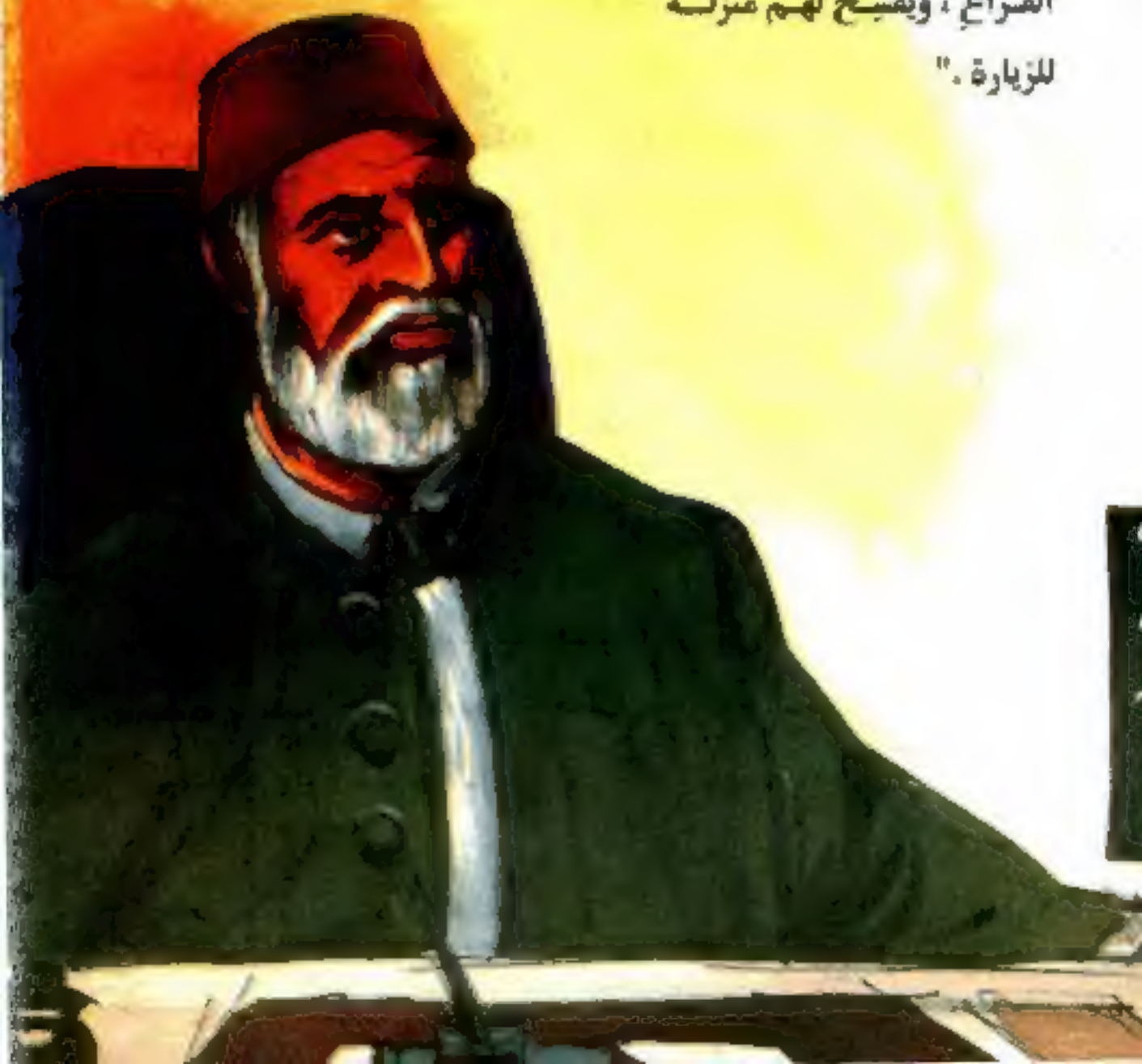
ويقول أستاذ الجيل : " رغبت تلامذة البكالوريا أن تُعفيهم المدرسة من الاختبارات الشهرية ، حتى يُوجهوا كل جهودهم في المذاكرة للامتحان العام . وأجمع رأيهم على أن يطلبوا إلى وزير المعارف على باشا مبارك ، إعفاءهم منها . واختاروني للذهاب لمقابلته ، فذهبتُ إليه .

وكان من عادته أن يضع سبورة في مكتبه ، لاختبار كل من يتقدم إليه من الطلبة في حاجة يريدُها ، ولا يُجيبه إلى حاجته ، إلا إذا أجابه إجابة صحيحة فيما يختبره من المسائل الرياضية أو العلمية .



فلما وقفتُ بين يديه ، طلبَ مني أن أقفَ أمامَ السبورة ،
لأبرهنَ على النظرية الهندسية التي حاصلها " إن مَرَبَّعَ وترِ المثلثِ
القائمِ الزاوية ، يساوي مجموعَ مربعي الضلعين الآخرين . " فأثبتها
أمامه ، فوافقَ على الرغبة التي أوفدني زملائي من أجلها .
وقد كانَ رحمه اللهُ أبا للتلاميذ مُحباً لهم ، عطوفاً عليهم ،

وكثيراً ما يختلطُ بهم في وقتِ
الفراغ ، ويُفصِحُ لهم منزلةَ
الزيارة . "



الجنود يحملون أولاد الأسرى !!

في الحديث الممتع المهم مع عالمة الآثار الفرنسية "نوبلكور"،
الذي نشرته مجلة "المصور" في أحد أعدادها، تؤكد عالمة الشهرة
حقيقة مهمة، لم ينتبه إليها الكثيرون، وهي أنه في مصر الفرعونية، لم
يكن هناك عبيد ولا عبودية، وهو ما يؤكد تقدمهم الحضاري
والإنساني. فتقول:

"المصريون القدماء لم يكونوا قساة على الإطلاق. كان هناك
خدم في المنازل، يعيشون مع أسرة واحدة لأجيال عديدة، لكنهم لم
يكونوا عبيدا. أما في الإمبراطورية الرومانية، فإن القانون الروماني
كان يعتبر العبد "شيئا"، وملكا كاملا لسيده، يتحكم كما يشاء في
حياته أو موته، كانه بقرة أو ثور."

"وكان هناك أسرى حرب في مصر القديمة، ويمكن أن نعتبر
هؤلاء عبيدا، لكن حتى هؤلاء لم تكن معاملتهم سيئة. بل إن
المصريين كانوا يسمحون للأسرى بإحضار زوجاتهم وأبنائهم، ولم تكن
هناك دول أخرى تفعل ذلك."

"وهناك كتابات قديمة لجنود مصريين، يشتكون من أنهم
يضطرون لحمل أولاد الأسرى وأحيانا زوجاتهم، عندما كانوا يعبرون
بهم مناطق وعرة.. تصور!!"

ثم تقول: "إن الأمريكيين لم يعاملوا السود الذين جلبوهم
من إفريقيا كعبيد هذه المعاملة الإنسانية، بل كان الروح يُباع بعيداً
عن روحه وأولاده، والروحة والأولاد يُباعون بغير شفقة، كل واحد
منهم لسيّدٍ مختلفٍ!!"



لن أقبل يده

كتب الكاتب الساحر "يعقوب صوغ" (١٨٣٩ - ١٩١٢) يحكي

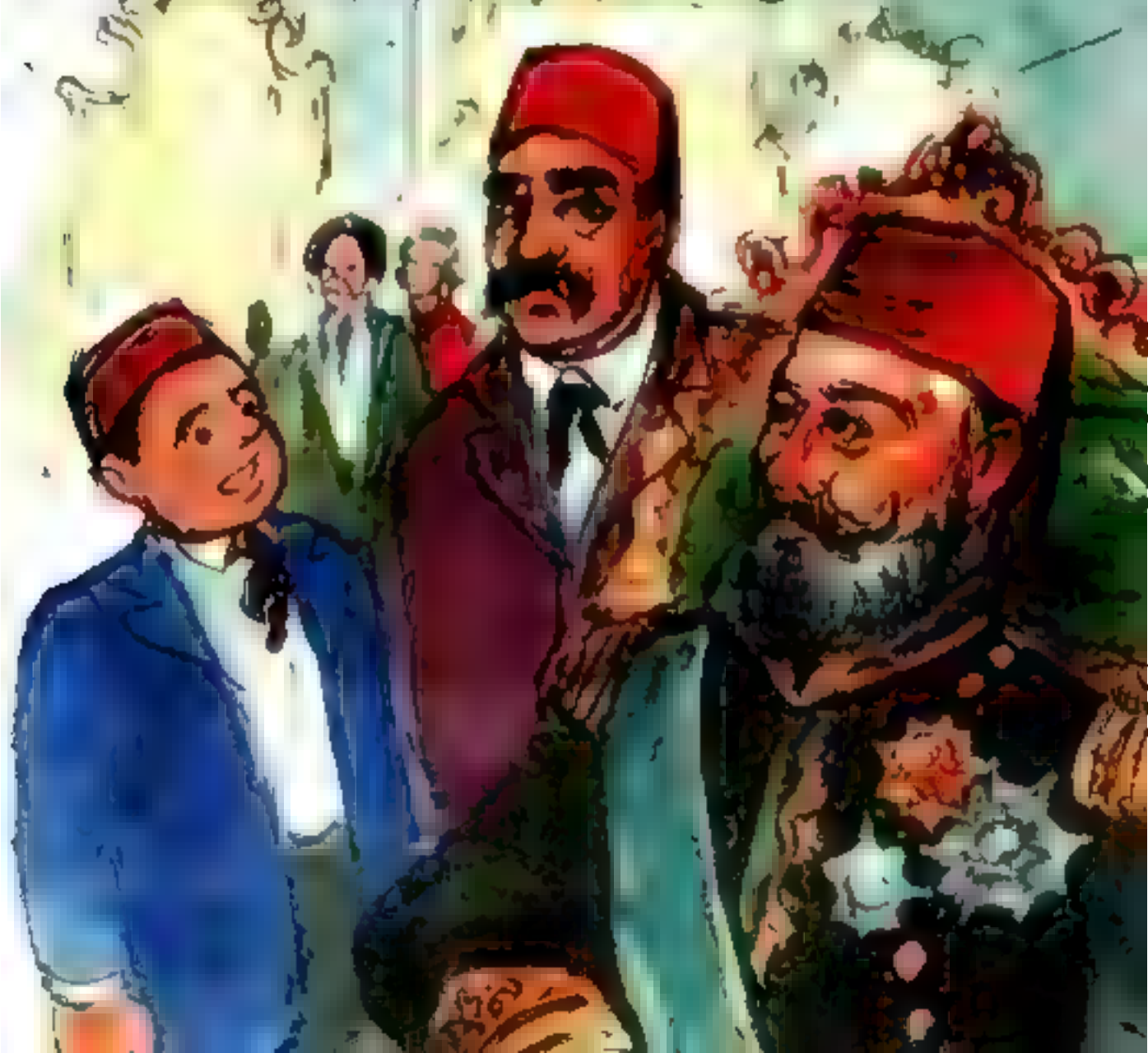
عن نفسه ، قال :

كنت في طفولتي شديد الاعتداد بنفسي . وفي الثالثة عشرة

من عمري . كتب قصيدة مدحت بها باطر مدرسي . وعندما قراها

والدي . اقترح علي ان اكتب قصيدة امدح بها الامير "احمد" .

حميد "محمد علي باشا" حاكم مصر . فكتبت قصيدة طويلا مدحها



والدى ، اقترح على أن اكتب قصيدة أمدح بها الأمير "أحمد" ،
حقيد "محمد على باشا" حاكم مصر. فكتبْتُ قصيدةً طويلةً ، قدمتها
والدى للأمير ، الذى لم يصدق أن صبياً فى الثالثة عشرة يستطيع أن
يكتب هذه الأشعار. وطلب الأمير أن يرى هذا الطفل المعجزة ،
فذهبتُ لأقابلة.

وعندما دخلتُ قاعة الاستقبال ، كانت مملأة بالزائرين.
وقدمتني والدى إلى الأمير وهو يقول: "هذا هو الشاعر الصغير".
ثم همس لي قائلاً: "قبل يد الأمير".
أما أنا فحييتُ الأمير وأنا أقول: "السلام عليكم ورحمة الله".
وأمسكنى أبى بعنف ، وهو يقول بصوت منخفض: "لماذا لم
تقبل يده؟"

فأجبتُه: "لا .. لن أقبلها!!"

وهددتني والدى ، لكننى أصررت على الرفض.
وشعر الأمير بما يحدث بينى وبين أبى ، فحاول أن يستوضح
الأمر ، فسبقتُ أبى بالكلام وأنا أقول:
"لا أدري لماذا يريد والدى منى أن أقبل يديكم !! إننى
إنسان مثلكم ، بل إننى أجيد كتابة الشعر!!"

ونزلتُ هذه الكلمات على أبى كالصاعقة ، لكن الأمير لم
يغضب من ثقتى الكبيرة بنفسى ، بل أمر أن أكمل تعليمى فى أوروبا ،
على نفقته!!

طريقتهم فى ذلك الحين

يتحدثُ أستاذُ الجيل أحمد لطفى السيد ، فى كتابه "قصة حياتى". عن بشاعة أساليب الحكم فى نهاية القرن التاسع عشر ، أى سنة ١٨٨٢ تقريباً ، وكان عمره عشر سنوات ، فيقول :
"أذكرُ أن الضرب فى ذلك الزمان كان مباحاً ، حتى ضربُ العمدة والأعيان ، وكان هذا بعض ما يحدث فى القرى المصرية من القسوة والاستبداد.





وقد رأيتُ ذلك بنفسى أكثر من مرة ، إذ كان لوالدى صديقُ
 يشغلُ وظيفة "مفتش تفتيش" ، فكُنْتُ وأنا بمدرسة المنصورة ، أذهبُ
 إلى بيته يوم الجمعة ، فأرى حوش التفتيش مرشوشاً ، والبيك
 المفتش قاعداً فى صدره ، وقد وقف اثنان من "القواسة" (مثل
 الخفراء) يحملان الكرياج و "الفَلَقَة" (وهى أداة للضرب على باطن
 القدم) لضرب العمدة الذين يتأخروا أهل قريتهم فى دفع الإيجار.
 ثم يضيفُ أستاذ الجيل قائلاً: "وكانت هذه هى طريقتهم فى
 ذلك الحين .. فانظر كيف كانت الحال بالأمس ، وكيف هى اليوم."

ضحكة فرعونية !

قد تكون هذه هي أقدم النواذر التي سجلها الإنسان ، فقد وجدناها مكتوبة على قطعة من ورق البردى ، يرجع عهدُها إلى حوالي سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد.

وتقول الحكاية ، إن أحد الكتبة كان يقوم بتسجيل العقود في غرفته قرب مدخل معبد آمون ، فأزعجته الضوضاء المُنبعثة من الغرفتين عن يسار ويمين غرفته ، وكان يعمل في أحدهما نجارٌ ، ويعمل في الأخرى بناءً.

وأحسَّ الكاتب أنه سيُجَنُّ من الضوضاء ، فذهب إلى النجار ، وقدم إليه مبلغًا كبيرًا من المال ، لكي يترك غرفته إلى غرفة أخرى. ثم فعل نفس الشيء مع البناء. وأخذ الرجلان المال ، بعد أن وافقاه على طلبه.

وفي اليوم التالي ، اكتشف الكاتب أن البناء انتقل إلى غرفة النجار ، وأن النجار انتقل إلى غرفة البناء !!

